



معهد الدراسات الإسلامية

## الإمام الباقر و تعاليم الإمامة

دليل قراءة لكتاب:

**الفكر الشيعي المبكر: تعاليم الإمام محمد الباقر للدكتورة آرزينا ر لالاني.**

(إ. ب تورس، لندن و نيويورك، بالتعاون مع معهد الدراسات الإسلامية 2000).

xiii + 192 pp. ISBN 1-86064-434-1

اتسم المجتمع الإسلامي دائماً بالتعددية وخلال العقود القليلة التي تلت وفاة النبي محمد (ص) أصبح العالم الإسلامي مزيجاً مركباً من ثقافات مختلفة وقد قوبلت هذه التعددية الثقافية بتعدد وتنوع فكري وعقائدي.. بعد وفاة النبي مباشرة واجه المجتمع الإسلامي الوليد أزمته الأولى بخصوص قيادة المسلمين: من سيقود الجماعة؟ انقسم المسلمون حول هذه النقطة والتي أضحت فيما بعد نقطة إنطلاق للعديد من المفاهيم المختلفة للسلطة كان أبرزها الشيعة والسنة والخوارج<sup>1</sup>. من المهم التنويه بأنه على الرغم من ظهور هذا الحافز لنشوء هذه التفسيرات منذ العصور المبكرة في التاريخ الإسلامي إلا أن تعاليم ومعتقدات طوائف الشيعة والسنة قد تبلورت عبر فترة زمنية طويلة.

على الرغم من الطبيعة المتنوعة والمتعددة لهذه التطورات في التاريخ الإسلامي المبكر إلا أن الدراسات الحديثة وحتى أمد قريب كانت تعبر بشكل رئيسي عن وجهة النظر السنية. يعود هذا لحد ما لعجز الباحثين عن الوصول إلى مصادر الشيعة. ساهمت أعمال مفكرين مثل فلاديمير إيفانو ولويس ماسيغنون وهنري كوربن في تصحيح هذا الوضع وذلك بوضع الكثير من كتابات الشيعة في الواجهة.

من النتائج المهمة للثورة الإيرانية عام 1979 انطلاق الإهتمام الفكري والبحثي في تاريخ ومذاهب المسلمين الشيعة<sup>2</sup>. على الرغم من هذه التطورات إلا أن المرحلة المبكرة من الإسلام الشيعي لا تزال حتى الآن لا تتلقى الإهتمام الذي تستحقه من الناحية البحثية الأكاديمية. لذلك وفي هذا السياق فإن عمل الدكتورة آرزينا ر لالاني عن الفكر الشيعي المبكر عبارة عن مساهمة جاءت في الوقت المناسب<sup>3</sup>.

يعتبر هذا الكتاب الأول من نوعه باللغة الإنجليزية عن حياة وعمل وتعاليم الإمام محمد الباقر والذي كان من أكثر المسلمين ثقافة في القرن الثاني للهجرة \ الثامن للميلاد. يسعى هذا الكتاب إلى إسقاط الضوء على المساهمات الفكرية للإمام الباقر مستعيناً بالمصادر الشيعية الإسماعيلية والإثني عشرية والتي كانت مهملّة في الغالب حتى الآن. تصنف هذه المساهمات ضمن الإطار الفكري والسياسي والاجتماعي والديني لذلك العصر. لقد تم التركيز على الدور الجوهرى للإمام الباقر في بلورة دور الإمامة وطبيعتها.

سيجد المهتمين في تطور فكرة الإمامة قيمة خاصة في هذا الكتاب، كما وسيستهوئ أيضاً أولئك المهتمين في التاريخ الشيعي المبكر إضافة للمهتمين بتاريخ الأفكار والعلاقة بين الفكر والمجتمع بشكل عام.

إن الأعمال الشيعية المتوفرة منذ عهد الإمام الباقر نفسه في الواقع قليلة جداً وهذا ما جعل المهمة الملقاة على عاتق أي مؤلف صعبة وذلك للتحقيق في المصادر والتحقق من موثوقية المعلومات المستخلصة منها. ولهذا فإن من إيجابيات هذا الكتاب إعماده على شريحة واسعة من المصادر.

تعود العديد من المصادر المستخدمة في هذه الدراسة إلى القرن الثالث للهجرة \ التاسع للميلاد وبذلك فإن هذه المصادر تصور مكانة الإمام الباقر بعد أكثر من قرن من عهده. من المؤكد أن المؤلفين لهذه المصادر كانوا متأثرين بالأوضاع الاجتماعية والفكرية والسياسية في عصرهم. وبصياغة أخرى فإن هذه المصادر "لا تصور فقط معتقدات المسلمين في ذلك الوقت بل وتشكل المرآة التي كشف فيها الوعي الشيعي عن طموحاته (تطلعاته) الخاصة"<sup>4</sup>.

## بنية الكتاب

يتتبع الفصل الأول من هذا الكتاب التطورات في التاريخ الشيعي منذ عهد الإمام علي وحتى عهد الإمام الباقر. تناقش الكاتبة في هذا السياق أيضاً نشوء الحركات السياسية والدينية والفكرية المتنوعة الأخرى. يعطي هذا الفصل لمحة واضحة عن الأحداث الرئيسية حتى عهد الإمام الباقر. إن الحركة الشيعية في هذا الوقت والتي كانت موحدة من حيث الولاء للإمام علي (عليه السلام) تألفت من مجموعات متعددة يقودها "أفراد مختلفين من عائلة علي بن أبي طالب التي كانت تنمو بالتدريج"<sup>5</sup>. يركز الفصل الثاني على فكرة الإمامة قبل عهد الإمام الباقر. بعد الإمام علي قاد معاوية بداية الحكم الأموي. في حينها اعتبر عدد من المؤيدين لأهل البيت (عائلة النبي) أن الأمويين اغتصبوا القيادة السياسية للمسلمين. يُظهر هذا الفصل أنه في الوقت الذي قيل أن دعم أسرة النبي قد ظهر في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي فإن حادثة كربلاء (61 للهجرة - 680 للميلاد) شكلت نقطة جوهرية في توحيد الآراء للتعبير عن محبة أهل بيت النبي بالإضافة للتعبير ضد الحكم الأموي. سجلت كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين وأصحابه ذروة الإضطهاد الأموي لأهل البيت ولذلك فإن هذه الحادثة خدمت كرمز سياسي ديني أعطى معنى وإحساس للحركات الشيعية المختلفة. تناقش المؤلفة عدداً من هذه الحركات وسنلقي بنظرة على بعضها فيما بعد.

يناقش الفصل الثالث حياة وسيرة الإمام الباقر. فعندما توفي الإمام زين العابدين والد الإمام الباقر عام (94 للهجرة - 714 للميلاد) حدث خلاف بين الشيعة حول الخليفة الشرعي للإمامة من ذرية الإمام علي المتعددة وقد أدى هذا لإدعاء عدة مجموعات بالإمامة لقادتها، وتعتبر الكيسانية والزيدية الأكثر شهرة من بين هذه المجموعات.

يناقش الفصل الرابع تعاليم الإمامة للإمام الباقر بتفسير أسس القرآن والحديث. يعتبر هذا الفصل بالفعل لب الكتاب فهو يناقش بإسهاب العلامات الفارقة لحق الإمام الباقر بالإمامة ويقدم بعض الأسباب لنجاحه.

تبحث الفصول من الخامس إلى السابع في مساهمات الإمام الباقر في الجدل اللاهوتي وتطور أدب الحديث الشريف ومساهماته في مجال الفقه.

## حياة الإمام الباقر وعهده

ولد الإمام الباقر عام 57 هجرية - 677 ميلادية واسمه الكامل محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. كان معاوية في ذلك الوقت قد رسّخ حكمه ويسعى وراء إحكام يمين الولاء لابنه يزيد مرسخاً بذلك حكم السلالة الأموية. وفقاً للذاكرة الشيعية فقد استلم الإمام الباقر الإمامة عام 94 هجرية - 714 ميلادية في المدينة بعد وفاة والده الإمام زين العابدين.

كما تم التنويه سابقاً فإن الخلافات حول السؤال: من سيقود المسلمين أصبح مع مر الزمن بالغ التعقيد. أدى عدد من القضايا الأخرى خلال القرون الثلاث الأولى من التاريخ الإسلامي إلى مناقشات وجدال بين مدارس الفكر المختلفة ومن هذه القضايا تعريف المسلم الحقيقي والسؤال حول مسؤولية الإنسان وحرية الاختيار. قارن أحد الكتاب الطبيعة الديناميكية لهذه المناظرات وغيرها من المناظرات السياسية الدينية بالتفاعلات الكيميائية فتتأخر التفاعل من الرواسب تظهر بعد أن يأخذ التفاعل الكيمائي مجراه<sup>6</sup>. تضمنت هذه الديناميكية رغبة بالعيش وفقاً للمثل العليا للإسلام ضمن مفهوم الزمن المتغير. يرجع الشيعة إلى توجيهات إمامهم ليتمكنوا من تحقيق ذلك. كانت هذه الرغبة أيضاً دافعاً خلف المحاولات وخاصة في القانون لخلق نظام يقدم طريقة للحياة بشكل منسجم مع مثاليات الإسلام<sup>7</sup>.

يرى المرء في حياة الإمام الباقر انعكاساً للعصر المليء بالأحداث. فحياته تعكس الارتباط المتناغم مع الأفكار البارزة في عصره والتي جعلته قادراً أن يترك أثره في الحياة الفكرية لتلك الفترة رغم أنه لم يكن ثورياً وعارض التمرد المسلح ضد الأمويين. فهو نادى بما تدعوه الكاتبة "فكرة الإمامة الغير ثورية" وسعى لجذب الأتباع من خلال القلم بدلاً من السيف. يلخص لقبه "باقر العلم"<sup>8</sup>، أي من يكشف العلم، أسلوبه في التعامل مع قضايا عصره<sup>9</sup>.

يوضح الكتاب مساهمات الإمام الباقر في عدة مجالات. سنركز هنا على استخدامه لتعاليم الإمامة لنوضح المشاكل السياسية والاجتماعية في عصره وردده عليها. كما ذكرنا مسبقاً فقد كان هناك عدد من المدّعين للإمامة خلال فترة الإمام الباقر. إن تقديم استعراض مختصر لذلك يمكن أن يقدم تبصراً مفيداً في هذا الصدد.

كانت الكيسانية عبارة عن مجموعات ينسبون ادعاء الإمامة عندهم إلى محمد الحنفية الولد الثالث للإمام علي<sup>10</sup>. أحدثت الخلافات عن الإمام الشرعي من هذا النسب فيما بعد عدة فروع ضمن الكيسانية. ومن الميزات المهمة لهذه المجموعات اعتمادها فكرة 'النص'، وهو التسمية الصريحة للإمام المقبل، باعتبارها الأساس لإدعائهم الخلافة. وكما سنرى فيما بعد فقد لعبت فكرة النص أيضاً دوراً مهماً في تشكيل الإمام الباقر للإمامة.

هناك مجموعة أخرى من الناس أيدت في ذلك الوقت زيد وهو الأخ الغير شقيق للإمام الباقر وعرفت هذه المجموعة فيما بعد بالزيدية.

اختلف المؤرخون فيما يخص الدوافع وراء ادعاءات زيد للقيادة. كانت الصفة المميزة للمجموعة الزيدية موقفهم بأن الإمام عليه أن يكون قادراً على شن هجوم ضد الحكام الغير شرعيين والذين كانوا الأمويون في تلك المرحلة<sup>11</sup>. ولذلك فقد ربطوا معايير القيادة بأحكام وشروط سياسية وعسكرية كما أنهم لم يعلقوا أي أهمية على أهمية الخلافة بالوراثة أو بالنص.

النتيجة الهامة التي استنتجتها الكاتبة من هذا التنوع في المجموعات هو اشتراط أغلب المتعاطفين الشيعة الأوائل على القائد أن يكون هاشمياً<sup>12</sup>. كانت هذه المجموعات والأفراد تحاول أن تحصل على دعم شعبي وكانت أفكارهم حول الإمامة لدرجة ما مليية لإحتياجات الناس الذين يحاولون استمالتهم<sup>13</sup>.

إنه لمن الصعب في بعض هذه الحركات الشيعية المبكرة أن تفصل المشاعر الدينية عن الرغبات الإجتماعية. وكما نوهنا سابقاً فإن عدّة اتجاهات في المجتمع كانت مقاومة للحكم الأموي وكانت مصادر النقمة على الأمويين عديدة ومصنفة من عدم المساواة العرقية وحتى الشعور بإغتصاب حق أهل البيت. إحدى المجموعات الساخطة كانت تدعى الموالي والتي كانت تتألف من المسلمين من غير العرب والذين ارتبطوا بالقبائل العربية بقصد الحصول على الحماية والمكانة. استاء هؤلاء من المرتبة المتدنية التي تم منحهم إياها وكان اعتناقهم للدعوى الشيعية أحد الطرق التي عبروا من خلالها عن استيائهم.

### حق الإمام الباقر بالإمامة

يتوجب دراسة تفسير الإمام الباقر للإمامة من خلال السياق الفكري والإجتماعي الذي ذكرناه مسبقاً بما يشمل الطبيعة المستحكمة والظالمة للحكم الأموي والخلافات حول الأحقية في القيادة وظهور المجموعات الناقمة على الحكم الأموي. إذا لم نراعي هذا السياق فإننا وفقاً لوصف دوركهام "نجعل القضية عصبية على الفهم إذا فصلناها عن الينابيع الحية التي تخرج منها"<sup>14</sup>. تشير المؤلفة إلى أنه "تم شرح المذهب الشيعي عادة بالإشارة للعوامل السياسية والإجتماعية إلا أنه هناك حاجة للتركيز على الظاهرة الدينية للإسلام الشيعي" والهدف الأساسي للكتاب هو التركيز على هذا الهدف ولكن من دون التضحية بالمفهوم الإجتماعي. ولذلك فإن المؤلفة تركز على الجدليات الدينية في حق الإمام الباقر في الإمامة.

يمكن اختصار النقاط البارزة في نظرية الإمام الباقر عن الإمامة كما يلي : الإمامة مثبتة من القرآن والحديث عندما عين النبي الإمام علي خليفة له. رافق هذا النص الصريح توريث النبي للإمام علي علمه ونوره. إن امتلاك الإمام للعلم والنور استناداً إلى النص يجعله معصوماً أو بمعنى آخر محمياً من الإثم والخطيئة. يتضمن الفصل الرابع من هذا الكتاب بشكل رئيسي تفصيلاً لهذه النظرية<sup>15</sup>.

يتألف منهج الإمام الباقر في تكوين الأساس القرآني للإمامة من شرح لسور خاصة من القرآن الكريم وإعطاء تفسيرات لدعم هذا الفكر. شكلت هذه التفسيرات الأساس لربط مفهوم الإمامة لدى العديد من الكتاب الشيعة مثل رجل القانون الإسماعيلي القاضي النعمان (توفي عام 363 هجرية – 974 ميلادية) والعالم الشيعي الإثني عشري الكليني (توفي عام 329 هجرية \ 940-941 ميلادية).

كانت أحاديث النبي في عهد الإمام الباقر تزداد أهمية أيضاً بإعتبارها من المصادر المهمة للقانون ولعلم اللاهوت عند المسلمين. قدم الإمام برهاناً ثانياً في دعم حقه في الإمامة من خلال الأحاديث الشريفة للنبي. كما أنه رأى أن الحدث الشهير لغدير خم وحديث النبي بخصوصه من بين الأحاديث الشريفة الأكثر أهمية في هذا الصدد. توضح الدكتور لالاني خلافاً للرأي والجدليات التي أحاطت بكلمات وعبارات محددة من هذه الأحاديث.

والشيء الجميل بشكل خاص وصف الكاتبة لكلا الفهمين الشيعي والسني للآيات والأحاديث النبوية المعينة التي قام الإمام الباقر بشرحها لدعم إمامته. وبذلك يتسنى للقارئ أن يرى الطبيعة الخلافية لمفهوم الإمامة في ذلك الوقت وهذا يساعد أيضاً في خلق مناقشة غنية حول التاريخ المبكر لهذا المفهوم الجوهري للإسلام الشيعي.

يمكن القول بأن الإمام الباقر كان يقول برأي سلمي وبعيد عن الروح الحربية. يدل هذا على فهم الأمام الباقر للوضع السياسي في وقت كان يتمتع الأمويون فيه بقوة عسكرية كبيرة. كان الإمام يؤكد على دوره الروحي والفكري ومعارضته للدور السياسي. لقد أعطاه تأكيداً على النص دليلاً على حقه بالإمامة وكانت هذه ميزة هامة فاقت مدّعي الإمامة الآخرين بسبب نسبه الشريف حيث أن جذبه من ناحية الأب ومن ناحية الأم كانا حفيدي النبي. في الوقت الذي كانت الأنساب تلعب دوراً رئيسياً في تحديد منزلة الشخص فإن هذا التأكيد على النص لم يساعد فقط في جلب بعض النظام إلى هذا الوضع المعقد بل وأرسى أساساً ودستوراً لمصدر ثابت للسلطة. كان تأكيداً على المعرفة المسؤولة للإمام، أو ما كان يدعى 'بالعلم'، متماشياً مع محاولته بأن يخلق مفهوماً سلمياً للإمام. أعيد تعريف مصدر الشرعية

بأنها تنبع من القلم والفكر بدلاً من السيف. بما أن فرعي الشيعة الأساسيين وهم الإسماعيليون والإثني عشريون يرجعون في تعاليم الإمامة إلى الإمامين جعفر الصادق والباقر فإنه من المعقول أن نبرهن أن نظرية الإمامة التي فسرها الإمام الباقر تحولت مع الوقت لتكون أكثر النظريات المنافسة استمراراً.

### الخاتمة

تركز الفصول الثلاثة الأخيرة على مساهمة الإمام الباقر في المجالات الأخرى القانونية واللاهوتية في عصره. ما يزال عدد من كتاباته يقدم مادة مثمرة للتفكير حول القضايا التي واجهها المسلمون الأوائل. فمثلاً لا يزال تمييزه بين الإسلام والإيمان واحداً من أكثر الأشياء المأخوذ بها كما أنه خاض في النقاش الأزلي الدائر حول فكرة التخيير والتسيير.

خلال عصر الإمام الباقر كان الناس قد بدأوا بجمع الأحاديث الموثوقة للنبي ومقارنتها. يعود الفضل للإمام الباقر في بلورة الأسلوب الشيعي في التعاطي مع الحديث الشريف. لقد كان تجميع السنة للحديث مقصوراً على أقوال وأفعال النبي بعكس الشيعة الذين يعرفون الأحاديث الشريفة بأنها أقوال النبي والأئمة والتي تنتقل للأجيال اللاحقة<sup>16</sup>. يستمد هذا المفهوم للحديث من نظرية الإمام الباقر عن الإمامة بإعتبارها مستودعاً للمعرفة الموروثة عن النبي<sup>17</sup>. لم تكن المكانة الفريدة للإمام الباقر في تجميع الأحاديث الشيعية مفاجئة بل أنه بالإضافة لذلك يعتبر "لدى الجماعات الغير شيعية وبالإجماع واحداً من أكثر أهل الخبرة والمصداقية معرفة بالتراث النبوي..."<sup>18</sup>.

إن دراسة حياة الإمام الباقر وتعاليمه تتصل بنا من عدة نواحي. فالسؤال المتعلق بتفويض السلطة في الإسلام لا يزال ذو صلة ومطروحاً حتى اليوم تماماً كما كان في عهد الإمام الباقر. تعتبر وجهة النظر التاريخية المتعمقة نافعة جداً في مناقشة هذه المسألة. إن حياة وفكر الإمام الباقر تساعدنا هنا على فهم كيفية نشوء تعاليم الإمامة في الفترة الزمنية المبكرة من تاريخ المسلمين. فتفسيراته للعبارة 'نور' وعبارة 'نص' وأيضاً عبارة 'علم' مهمة جداً لفهم السجل التاريخي حول مسألة التفويض والسلطة. كذلك فإن إجاباته على عدد من القضايا المستمرة في الحياة مثل حرية الإنسان ومسؤولياته تعتبر محفزاً للتفكير كما أنها تغني فهمنا لتلك القضايا. على أية حال فإن إرثه الأعظم يتلخص في تذكيرنا أن الحياة الفكرية في الإسلام قادرة على الارتباط مع استفسارات وهموم الإنسان في عصره. وهذا درس يستحق التذكر اليوم.

فريد بنجواني

قسم التعليم وقسم التنسيق بين معهد الدراسات الإسماعيلية وهيئة الطريقة والثقافة الدينية الإسماعيلية  
معهد الدراسات الإسماعيلية

## المراجع والملاحظات

1. على الرغم من أن الخوارج كانوا أول الفرق التي افترقت عن الجسم الرئيسي للمسلمين إلا أنهم اليوم أقليات قليلة جداً في بعض البلدان.
2. هاينز هالم، الشيعة (إدنبرة 1991).
3. يناقش عزيز إسماعيل وعظيم نانجي قلة الدراسات عن الشيعة وفي الأخص الإسماعيليين، ويربطون ذلك بالعديد من الأسباب التاريخية والمعاصرة في بحثهم 'الإسماعيليون في التاريخ' في كتاب المساهمات الإسماعيلية في التراث الإسلامي، تحرير س. حسين نصر (طهران، 1977). يقدم فرهاد دفتري مراجعة تاريخية عن الدراسات حول الإسماعيليين في كتابه 'الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم' (كامبردج، 1990)، الفصل الأول.
4. لالاني، الفكر الشيعي المبكر، صفحة 19.
5. و. إيفانوف، 'الحركات الشيعية المبكرة'، في مجلة فرع بومباي من الجمعية الملكية الآسيوية (1941)، مجلد 17، صفحة 1.
6. عزيز إسماعيل، 'الإسلام والحداثة: آفاق فكرية'، في التقويم الإسلامي، تحرير عظيم نانجي، (ديترويت، 1996).
7. نيجوين يافاري، 'الطبيعة المتطورة للشريعة'، في مجلة الإسماعيلي لكاندا، (تموز 1999). يناقش هذا المقال التطور التاريخي والتصورات الحالية عن الشريعة.
8. نظر إلى العقل في التراث الإسلامي أحياناً من خلال مثال الشجرة ذات الجذور والأغصان. يمكن أن تشير فكرة تقسيم المعرفة إلى هذا المعنى الدلالي للمعرفة. وفقاً لالاني فقد اعتُبر الباقر الشخص القادر على الوصول لجذور أو مبدئيات المعرفة.
9. توضح الكاتبة أهمية هذا العنوان خاصة في تقوية الرابط الروحي بين النبي وحق الإمام الباقر بالإمامة.
10. كان محمد بن الحنفية ابن الإمام علي من زوجته خولة من بني حنيفة، والتي تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى فاطمة عليها السلام (دفتري، الإسماعيليون، صفحة 52).
11. دفتري، الإسماعيليون، صفحة 70.
12. تعني كلمة الهاشميون هنا من ينتمي لقبيلة بني هاشم، ويعود اسمهم للجد الأكبر للنبي محمد، هاشم بن عبد مناف. لالاني، صفحة 43، انظر أيضاً المخطط النسبي في الكتاب.
13. لالاني، صفحة 10.
14. إميل دوركهيم، 'وسترمارك، أصل وتطور الأفكار الأخلاقية'، في كتاب دوركهيم: مقالات عن الأخلاق والتعليم، تحرير و بكونج، (لندن، 1979).
15. توجد مناقشة سهلة الفهم في القسم الرابع للكتاب عن مصطلحات العلم والنور والإسماعيلية، خاصة الصفحات 76 وحتى 83. سيدد القارئ هذا المناقشة هامة بشكل خاص لتقديمها أرضية تاريخية عن هذا المصطلحات.
16. لالاني، صفحة 103.
17. لالاني، صفحة 103.
18. لالاني، صفحة 96.